المملكة الثالثة

حمـــاه

حمـاه

وكانت من قديم بيد الملوك الأيوبية وكان بها بعض ملوكهم من تحت أمير صاحب هذه المملكة إلى أن أخرجت عنهم إلى ملوك الترك سنة إحدى وأربعين وسبعمائة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون[1] -سقى الله عهده-، وكان قبل بها الملك المؤيد إسماعيل بن الأفضل علىّ[2]، ثم إلى ولده الأفضل محمد.

قال فى (مسالك الأبصار): وكان صاحبها يستقل بها بإقطاع أثمره، والإقطاعات وتولية القضاة، وكاتم السر، وجميع الوظائف بها، ويكتب المناشر والتواقيع من جهته، ولكنه لا يمضى أمرًا كبيرًا مثل إعطاء أمرية أو وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر على ذلك فلا يجيبه السلطان إلا بالرأى فيما يرى.

قال: ومع ذلك فصاحب مملكة مصر فى ولايته وعزله إلى أن قام محمد بن قلاوون نائب سلطنة من مماليكه، فى السنة المذكورة، وحماه عظيمة البناء، قديمة فى الإسلام، لها ذكر فى التوراة، وهى على ضفة نهر العاصى، ولها سور جليل، وبها القصور المملوكية، والدور الأنيقة، والجوامع، والمدارس، والمساجد، والأسواق التى لا يعدم نوع منها، ودور أشرافها وملوكها مطلة على النهر، وبها قلعة مبنية بالحجارة الملونة وقد خرب بعضها، وبها آثار الخير من أيام الملوك الأموية، وبها نواعير مركبة على نهر العاصى، تحمل الماء إلى الدور السلطانية، ودور الأمراء، والأكابر، والبساتين، ولم تزل فى زيادة من المحاسن إلى أيام الدولة الأتابكية[3] فزاد فى محاسنها وعظم شأنها؛ فلما آلت إلى الأيوبية جددوا فيها الأبنية العظيمة، والقصور الفائقة، والمساكن الفاخرة، وقاموا

---

(١) محمد بن قلاوون، هو: ابن عبد الله الصالحى، من كبار ملوك الدولة المملوكية، توفى سنة (٧٤١هـ). انظر: النجوم الزاهرة (٤٦/٨). شذرات الذهب (٣٠٠/٨).

(٢) إسماعيل بن الأفضل، هو: ابن على بن محمود بن أيوب الملك المؤيد، صاحب حماه، اشتغل بالتأريخ والجغرافيا، توفى سنة (٧٣٢هـ). انظر: الدرر الكامنة (٣٧١/١) وسير أعلام النبلاء (٣١٩/١).

(٣) أتابك: لقب تركى أطلقه السلاجقة على بعض رجال البلاط والوزراء والقادة، وتمكن بعض الأتابكة من السيطرة على الحكم فنشأت فى القرن السادس والسابع دويلات متعددة فى بلاد فارس وبلاد الشام. انظر: أحوال العامة فى حكم المماليك، لحياة ناصر الحجى، ص٧٥.

بتجنيد الأجناد، وعظموا أسواقها، وزادوا فى غراسها، وجلبوا لها من أرباب الصنائع كل من فاق فى فنه، إلى أن صارت معدودة فى مهمات البلاد، وأن مملكتها من أحسن الممالك.

قال فى المسالك: وليس بعد دمشق لها نظير، وبها ثلاثة مقاصد :

المقصد الأول: فى حاضرتها[1] والمشهور أن نيابتها من أجل النيابات، وأعظمها، وأمكنها، وهى ثانى نيابة الشهباء من حيث إنها كانت دار مملكة لبنى أيوب، وتقدم على طرابلس؛ لأنها تشرفت بالإسلام، ولم يكن بها أمير مقدم ألف إلى الآن سوى نائبها، وليس بها أحد من أمراء الطبلخاناه غير الحاجب الكبير، وبها من أرباب السيوف القيادية، وأمراء العشرات، والخمسات، وأجناد الحلقة، وبها حاجبان :

الأول: طبل خان[2].

والثانى: أمير عشرة، وبها المهمندار[3]، ونهاية العسكر بمقام نقيب الجيش، وولاية المدينة، وجميعهم أجناد ليس فيهم أمير وولايتهم من نائبها، وبها القضاة الأربعة وولايتهم من الأبواب الشريفة، وتواقيع[4]، وتشاريف[5]، وبها قاضى عسكر حنفى، ولايته من الأبواب الشريفة ومحتسب، وولايتهم من نيابها.

وبها من أرباب الوظائف الديوانية كاتم السر، ويعبر عنه بصاحب ديوان المكاتبات بحماه المحروسة، واستقراره من الأبواب الشريفة بتشريف وتوقيع،

---

(١) الحاضرة: المدينة الكبيرة، أو العاصمة. انظر: القاموس المحيط، مادة [حضر].

(٢) الطبل خاناه: المراد بها ما نسميه فى عصرنا موسيقى الجيش، وهى لفظ فارسى. وأمير الطبلخاناه، هو: الأمير الذى يرقى إلى درجة يستحق بها أن تضرب الموسيقى على بابه. انظر: معجم الألفاظ التاريخية ى العصر المملوكى ص١٠٦.

(٣) المهمندار: لفظ فارسى، وهو الذى يستقبل الرسل والوافدين ويسهر على راحتهم، ويقوم مدير المراسم فى عصرنا الحاضر بهذه الوظيفة. انظر: معجم الألفاظ التاريخية ص١٤٧.

(٤) التواقيع : مفردها التوقيع، فقد كان للسلاطين تواقيع خاصة بخواتيم يختمون بها الرسائل وكانت تسمى الطغراء. انظر: معجم الألفاظ التاريخية ص٤٩.

(٥) التشاريف، مفردها التشريف: وهو ما يقابل الوسام فى عصرنا. انظرك معجم الألفاظ ص٤٥.

وأتباعه كتاب الدست[1]، وكتاب الدرج، وولايتهم من نائبها، وناظر للملكة من نائبها، وناظر للجيش بتوقيع شريف.

ترتيب مركبها: أن النائب بها يركب من دار النيابة بها فى يوم الخميس، والأمير مع العسكر، والأمراء، وأجناد الخليفة، ويسير إلى خارج المدينة من قبلها فى الموكب حتى يأتى إلى ضيعة تسمى (نقرين) وهى بالقرب من المدينة، ثم يعود فى موكبه حتى يقف (فى سوق الخيل) مكان خارج المدينة، ويعرف بالموقف، ساعة لطيفة، ثم يسير إلى دار النيابة، ويدخل العسكر من أول باب يعرف بباب المعرة، ثم تترجل الناس على الترتيب على قدر منازلهم، ولا يبقى راكبًا سوى النائب، ولايزال راكبًا حتى يترجل بمقعد بدار النيابة مقعدية للحكم، فيجلس فيه، ويجلس معه داخل الشباك القضاة الأربع ؛ الشافعى، ويليه الحنفى، والمالكى عن يساره، والحنبلى يليه .

قلت فى قانون بنى عثمان: لا يجالس الحاكم ويركب إلا القاضى الحنفى، والمفتى الحنفى، والمدرسون، ثم يجلس الأمراء بحسب منازلهم، وكاتم السر، وناظر الجيش أمام النائب خارج الشباك، ويقف هناك الحاجبان، والمهمندار، وخلفهما النقباء، وترفع القصص ؛ فيقرأها كاتم السر عليه، ويأمره فيما يراه، ثم يقوم من محله ذاك، وتنصرف القضاة، ويدخل إلى قبة مُعَدة إلى جلوسه ومعه كاتم السر، وناظر الجيش، والأمراء ؛ فيفصل بقية أموره بما يتعلق بتجيش وغيره، ثم يمتد السماط[2]، فيأكلون، ويشربون المشروب، ثم يتفرقون .

الثانى: فى ترتيب ما هو خارج عن محازاتها ولم يكن بأعمالها نيابة، بل يستقر فيها على ثلاث ولايات بثلاثة أعمال.

الأولى: ولاية الرها كما تقدم فى دمشق.

الثانية: ولاية بارين[3] وهى بلدة بالقرب من حماة على مرحلتين منها.

---

(١) كتاب الدست: هم من يكتبون ما يريد السلطان ويضعون توقيعهم بدله بإذنه وترسل للتنفيذ. انظر: معجم الألفاظ التاريخية ص٧٥.

(٢) السماط: ما يبسط ليوضع عليه الطعام. انظر: القاموس المحيط، مادة [سمط].

(٣) انظر: معجم البلدان (١/٣٨١).

الثالثة: ولاية المعرة وتعرف بمعرة النعمان إضافة إلى النعمان أبى بشير الأنصارى العمانى، وهذه المدينة جليلة عامرة، كثيرة الفواكه والثمار.

ويقال: بها قبر شيث بن آدم، ويوشع بن نون، وعلى القرب منها دار عمر ابن عبد العزيز، ولم يكن لها عرب ولا تركمان ينسبون إليها.

قلت: ينسب إلى المعرة أبو العلاء المشهور الضرّير، لم يكن له نظير فى سائر العلوم، وحفظ علوم الأوائل، وله ديوان مشهور، وشرح ديوان المتنبى، سماه [بمعجز أحمد].

وأما قوله: قبر شيث عليه السلام بها؛ فيعارضه أنه مدفون قرب قبر نوح قبليه فى أول أرض بعلبك وآخر البقاع، وهذا يسفر أن يكون أصح لدفن نوح هناك، وغيره من الأنبياء، حتى فى أرض البقاع مدفون ذى اليسع، والعزير كما يقال، وقريب من ذلك هناك قبليه مدفون نبى الله هابيل بوادى بردى، والفرق مرحلة، وفى طرفها قبور كثيرة من أولاد يعقوب كسجد وغيره والله أعلم بحقيقة الحال.